إسهامات علماء الجزائر في الحركة الفكرية والعلمية الحديثة
سيرة الشيخ امحمد بن يوسف اطفيَّش بقلم أحد طلابه
The contributions of the Algerian scientists in the scientific movement of the modern era Biography of Sheikh Amhamed Bin Yusuf Atfayesh

د. يحيى بن بُهون حاج امحمد

جامعة غرداية– الجزائر

الملخص:

الشيخ امحمد بن يوسف أطفيَّش من أعلام النهضة الإصلاحية الجزائرية الحديثة، وصاحب التصانيف المتنوعة بين الفقه والتفسير والحديث والنحو والبلاغة والأدب، وهو واحد من علماء الإباضية البارزين في هذا العصر.

وسنقدم في هذه الورقة البحثية نبذة عن حياة الشيخ، ونضاله الفكري والسياسي، كما سنقف عند واحد من أهم الكتب التي ترجمت لحياة الشيخ، وهو كتاب "السلاسل الذهبية والشمائل الطفيشية".

الكلمات المفتاحية: الشيخ اطفيَّش، بن بكير القراري، النهضة الجزائرية، السلاسل الذهبية، الشمائل الطفيشية.

Abstract:

Sheikh Mohammed Bin Yusuf Atfayesh is one of the Algerian reformists of the Renaissance. He has many classifications

including religion, interpretation, Hadith, grammar, eloquence and literature, and is one of the eminent Ibadi scholars in this era.

In this paper, we try to present an overview of the Sheikh's life, his intellectual and political struggle, and we will stand at one of the most important books that has dealt with the Sheikh's life, It is "golden chains and parasitic chameleons".

Key words: Sheikh Atfayesh, Ben Bakir Al-qarari, Algerian Renaissance, golden chains, chameleon Tafesh.

مقدمة:

تعدّ مذكرات الطلاب والتلاميذ المباشرين من المصادر التي لا غنى عنها في التعريف بسير الأساتذة الأعلام الذين تتلمذوا على أيديهم؛ لما تحمله تلك المذكرات من الأخبار والآثار مما شهده الطلاب بالعيان وطول العشرة التي تقتضي التعرف على الكثير من الطبائع والخصال...؛ ومما يسبر كذلك أغوار شخصية الشيخ أو الأستاذ _بالإضافة إلى طول الملازمة والاحتكاك والمجالسة_ عقد الرحلات المتنوعة رفقته؛ إذ تتجلى في الرحلة المزيد من المكاشفات التي قد لا يذكر الشيخ تفاصيلها ودقائقها في مذكراته حتى وإن وُجدت.

يضاف إلى ذلك ما يحكيه الأستاذ أو الشيخ لطلابه عن أساتذته وشيوخه، وعن مراحل تعلمه وتدرجه، وعن أسفاره ورحلاته وهواياته واهتماماته... ونحن أمام نموذج لمذكرات صاغها أحد تلاميذ الشيخ أطفيَّش المبرَّزين، وهو الشيخ إبراهيم بن بكير حفّار القراري من خلال رسالته المسماة: "السَّلاسل الذهبية بالشمائل

الطفيشيَّة"؛ وفيها ذكر لتفاصيل قيّمة عن سيرة القطب أطفيَّش؛ سنحاول التعرض لمحتوى الرسالة طالما أنها لم تحقق بعدُ تحقيقاً علمياً رصيناً؛ وإن كان حفيد القطب قد أخرجها بالطباعة حتى يستفيد منها الباحثون والدارسون؛ فهي تحتاج إلى وقفة متأنية وقراءة دقيقة حتى نستوعب أفكارها ودقائقها.

وتتلخص أهم عناصر البحث حول النقاط الآتية، وهي:

1- القُطب أطفيَّش نسبه ومولده.

2- نشأته ووفاته.

3- نبوغه الفكري ومكانته العلمية.

4- طلابه وتلامذته.

5- إبراهيم بن بكير حفار القراري وكتابه: السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة.

أ- التعريف بالمؤلف.

ب- موضوع الكتاب وفصوله.

ت- منهج المؤلف في الكتابة.

ث- القيمة العلمية للكتاب.

6- خلاصة وخاتمة.

1- القطب أطفيَّش نسبه ومولده:

هو: امحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمن بن عيسى بن إسماعيل ابن محمد بن عبد العزيز بن بكير الحَفصِي، أطفيَّش أشهر عالم إباضيٍّ بالمغرب الإسلامي في العصور الحديثة، من عائلة شهيرة بالعلماء من بني يسجن، غرداية، الجزائر، من عشيرة آل بامحمد[1]، وينتهي نسبه إلى عمر بن حفص الهنتاتي، من العائلة الحفصية المالكة بتونس بين (625-983هـ/ 1229-1574م)، وفي بعض كتبه يُنهي القُطب نسبه إلى أبي حفص عمر بن الخطاب.

يقول عنه تلميذه الشيخ إبراهيم أبو اليقظان في ملحق السير: "منهم الشيخ الحاج امحمد بن يوسف أطفيَّش الشهير بقُطب الأئمة عند المغاربة، وبقطب المغرب عند المشارقة، وهو جدير بحق بهذا اللقب العظيم، فإنَّ علماء المشرق والمغرب كالكواكب تدور على هذا القطب في فلكه الواسع، ويتصل نسبه بسيدنا عمر بن الخطاب فهو من بني عدي"[2].

[1] آل بامحمد بن عبد العزيز: من أكبر عشائر بني يسجن وأشهرها إلى اليوم وتحوي عائلات عريقة في العلم والدين، وقد رأيت دفترًا صغيرًا بمكتبة الاستقامة ببني يسجن يحوي شجرة نسب هذه العشيرة.

[2] ينظر: إبراهيم أبو اليقظان، ملحق السير، ج3 ص 153، مخطوط.

أمَّا لقب "قُطب الأئمة" فقد أطلقه عليه الشيخ عبد الله بن حميد السَّالمي[1] _مُجدد العلم بعُمان_ فاشتهر به حتى صار علمًا عليه.

1-1- نشأته:

ولد القُطب في مدينة غرداية لما انتقل إليها والده، سنة 1236هـ/ 1820م، وعاش بها طفولته الأولى، ويُعد والده الحاج يوسف من الشخصيات البارزة في وادي مزاب على ذلك العهد، حتى وإن لم يسجل لنا التاريخ كُلَّ آثاره، أمَّا عن السبب المشهور لنفي والده إلى مدينة غرداية فيرجع إلى الخلافات التي كانت تنشب بينه وبين وجهاء بلدته يسجن حول إصلاح الأوضاع الاجتماعية[2].

إلاَّ أنَّ التَّنعُّم بظلِّ الوالد لم يدُم طويلاً للفتى امحمد، فقد توفي الأب والابن لم يتعدى الرابعة من عُمُره، فتركه يتيماً تحت كفالة والدته التي توسَّمت فيه بوادر النبوغ فرشَّحته بكل ما تملك لنيل العلم النافع رغم قسوة ظروف الحياة ومرارة العيش، هذه الأم الرءوم هي: مَامَة سَتِّي بنت الحاج سعيد بن عدون بن يوسف بن

---

[1] عبد الله بن حميد السالمي (نور الدين): (1286-1332هـ) علم من أشهر علماء عُمان في العهد الحديث، له مؤلفات عديدة تعد مرجعًا في العقيدة والتوحيد منها: "مشارق الأنوار"، و"مدارج الكمال" وغيرها، لقبه القُطب بـ"نور الدين".. ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، تأليف: د.محمد صالح ناصر وسلطان بن مبارك الشيباني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006، ص 271-273.

[2] هكذا تذكر معظم المصادر، ولا أدري بالضبط سببا غير هذا لانتقال والد القطب إلى مدينة غرداية، وقد استشرت عادة نفي الدعاة والعلماء قديمًا من قُراهم بسب تفشي الجهل والعصبية.

قاسم بن عمر بن موسى بن يدَّر، من عائلة آل يدر ببني يسجن، وتعتبر هذه الأم الفاضلة بِحقٍّ من الأمهات المكافحات وقد بذلت كلَّ جهدها في سبيل تنشئة ابنها التنشئة الصالحة.

وعنها يقول المؤرخ الأستاذ محمد علي دبوز: "لقد كان لوالدة القطب أعظم الجهد فيه بوراثتها الشريفة، فكانت هي السبب في اتجاه القطب إلى العلم بعد وفاة والده، فلولاها لاتجه اتجاهاً مادياً يُودِي بنبوغه، كما أودت المادة والجهل بنبوغ كثير من اليتامى وأبناء الأمهات الجاهلات"[1].

فحينما بلغ محمد بن يوسف أطفيَّش الخامسة أدخلته أمه في كُتَّاب المسجد لحفظ القرآن، فسطع نجمه أمام أترابه، حيث لم تمر ثلاث سنوات حتى كان الفتى اليافع قد حفظ القرآن الكريم بكامله حفظاً جيداً عن ظهر قلبٍ، وهو لم يبلغ بعدُ ثماني سنوات.

لقد فتح هذا النبوغ والذكاء الخارق مع الكفالة الطَّيبة الشَّهية للفتى امحمد، فسارع لحضور حِلقِ العلمِ في المسجد وفي بعض دور العلماء _مع قِلَّتهم على عهده_، فملأ منها بعض وِطَابِهِ إلاَّ أنها لم تشف غليله، إذ لم يأخذ منها الشيء

[1] ينظر: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، المطبعة التعاونية، 1965م، ج1 ص290 وما بعدها.

الكثير بل انتهى إلى المبادئ فقط، فمن أخيه الأكبر إبراهيم بن يوسف[1] أخذ مبادئ النحو والفقه، وعن الشيخ سعيد بن يوسف وينتن[2] تلقى مبادئ المنطق، وكان يحضر حلقة الشيخ عمر بن سليمان نوح[3] مع أخيه إبراهيم، وحلقة الشيخ الحاج سليمان بن عيسى آل الشيخ[4] في دار التلاميذ اليسجنيين.

وقد كان لأخيه إبراهيم الأثر الكبير والفعال في تثقيف شخصية القُطب، ويمكننا أن نستدل على ذلك بما كتبه تلميذه أبو اليقظان، إذ قال: "لما رجع أخوه الشيخ الحاج إبراهيم من المشرق العربي من عُمان ومصر وهو مملوء بأوسع المدارك كما مر بيانه، إذ احتضنه تعليماً وتثقيفاً، فوجد منه بحراً زاخراً، عذباً يروي غلته من العلم والمعرفة، فأخذ حظه منه في سائر العلوم، ثم تفرغ للتدريس والتأليف، وصرف قوة شبابه فيهما إلى آخر عمره"[5].

---

[1] إبراهيم بن يوسف: الأخ الأكبر القُطب، تلميذ الشيخ عبد العزيز الثميني، وجد أبو إسحاق إبراهيم أطفيَّش (ت: 1303هـ/1886م)، ينظر: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ج2 ص71.

[2] سعيد بن يوسف وينتن: من حكماء مزاب على عهده، ناصر القُطب في نهضته العلمية بعد نبوغه، (حي في: 1267هـ/1847م)؛ نفسه، ج3 ص387.

[3] عمر بن سليمان نوح: من علماء بني يسجن بميزاب، خلَّف بنتاً فاضلة وقد تزوَّجها القُطب أطفيَّش فوهبت له الخزانة التي ورثتها عن أبيها، (ت:1292هـ/1875م)، المرجع نفسه، ج3 ص643.

[4] سليمان بن عيسى: من علماء بني يسجن وأبطالها، تلميذ ضياء الدين الثميني، وصاحب مدرسة علمية رائدة (حي في: 1265هـ/1848م)، المرجع نفسه، ج3 ص433 وما بعدها.

[5] ينظر: إبراهيم أبو اليقظان، ملحق السير، ج3 ص 153 وما بعدها، مخطوط.

وعلى ضوء هذا فإن أخاه الحاج إبراهيم، هو من كوَّن فيه الرغبة الخالصة في المعرفة مع التوجيه السليم، حيث درس عليه العلوم الشرعية كالعقيدة والفقه، وعلوم القرآن والمنطق والتاريخ، ثم إن أخاه قد منح له كل كتبه التي جاء بها من المشرق العربي، فدرسها دراسة علمية وقرأها من دون أستاذ حتى تمكن فيها كل التمكن، وفقه مسائلها وأدرك أسرارها؛ بعد ذلك شمر امحمد على ساعد الجِد بعزيمة لا تعرف الكلل ولا الملل، يدفعه في ذلك ذكاءه الحاد وذاكرته الوقَّادة مع رغبة في طلب العلم لا تعرفُ الحدود.

نشأ الشيخ أطفيَّش عصاميًّا مُعتمدًا على نفسه في طلب العلوم، فلم يسافر لتحصيلها بل جعل دأبَهُ الحرص الشديد على اقتناء الكتب واستنساخها لنفسه، مجتهدًا في طلبها من كلِّ البُلدان، رغم ضيقِ ذات اليد وبُعدِ المسافات، وقد أقبل على المكتبات يلتهم كنوز المعرفة من بطونها، وساعدته في ذلك بعض الظروف فمن حسن حظه أن دعاه نجل الشيخ عبد العزيز الثميني وفتح له خزانة والده[1]، ثم وهبت له بعد ذلك زوجته الصالحة عائشة نوح[2] الخزانة التي ورثتها عن أبيها الذي كان عالما، بهذا وجد القطب نفسه أمام عدد من خزائن الكتب، فلم تتق نفسه إلى الرحيل خارج الوطن طلبا للعلم مكتفيا بما حوله من الكنوز.

[1] خزانة الشيخ ضياء الدين الثميني هي المعروفة اليوم بمكتبة الاستقامة ببني يسجن، غرداية، الجزائر.

[2] عائشة نوح: (ت: 1357هـ/1938م) من عالمات بني يسجن، أخذت العلم عن والدها وعن زوجها القُطب الذي وهبت له خزانة أبيها؛ معجم أعلام الإباضية، ج3 ص499.

1-2- نبوغه:

لم يكد القُطب يبلغ السادسة عشرة من عُمره حتى جلس للتدريس والتأليف، ولمَّا بلغ العشرين صار عالم وادي مزاب، ثم في كهولته بلغ درجة الاجتهاد، كما يذكر ذلك بنفسه في كتابه شامل الأصل والفرع، ولا أدل على ذلك من نبوغه النحوي، بحيث استطاع أن ينظم كتاب المغني لابن هشام في خمسة آلاف (5000) بيت وعمره لا يزيد على الستة عشرة (16) سنة.

1-3- معهده:

أنشأ القُطب عام 1253هـ/1837م معهدًا للتدريس في بني يسجن هي في الأصل داره، ثم دخل حلقة العزابة، وقد تعرض للنفي من بلدته إلى بلدة بنورة (آت بونور) ومكث بها حوالي عشر سنوات ألف فيها كتبا كثيرة، وتخرج عليه في الفقه بها كثير من الطلبة، ولما عاد إلى بلدته خلف الشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبار في مشيخة المسجد في: 25 ديسمبر 1878م/1296هـ.

تخرج على يديه عشرات من التلاميذ، أصبحوا فيما بعد من أبرز العلماء وأجل الشخصيات المجاهدة والداعية، وقد انبثُّوا في معظم أقطار المغرب والعالم

الإسلامي، من امْزاب وجربة ونفوسة وعُمان، أشهرهم: سليمان باشا الباروني النفوسي[1]، وسعيد بن تعاريت الجربي[2].

ومنهم أيضًا: إبراهيم أبو اليقظان[3]، وأبو إسحاق إبراهيم أطفيَّش الجزائري[4]، وبابكر بن الحاج مسعود[5]، وصالح بن عمر لعلي[6]، وصالح بن

---

1 سليمان باشا الباروني: من زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة بليبيا، عالم وزعيم مجاهد وأديب، (1870م/1940م)، ينظر بتفصيل أكثر: معجم أعلام الإباضية، ج3 ص426 وما بعدها.

2 سعيد ابن تعاريت: من شيوخ جزيرة جربة، صاحب "رسالة في تراجم علماء الجزيرة" (ت: 1289هـ/1872م)، ينظر: نفسه، ج3 ص375.

3 إبراهيم أبو اليقظان: (1888م/1973م) من أعلام الجزائر في العصر الحديث، يعتبر شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية بين 1926 و1938م. ينظر: المرجع نفسه، ج2 ص52 وما بعدها.

4 أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الجزائري: (1886/1965م)، من أعلام الجزائر والعالم الإسلامي، عالم وسياسي ومجاهد، وهو شيخ المحققين، من مؤسسي حزب الدستور التونسي، ومؤسس مجلة "المنهاج" بمصر، له تآليف وتحقيقات لكتب عديدة، ينظر: المرجع نفسه، ج2 ص44 وما بعدها.

5 بابكر بن الحاج مسعود: (ت: 1325هـ/1907م) قاضي بالمحكمة الإباضية بغرداية، يعد من بين تلاميذ القُطب النابغين. نفسه، ج2 ص133.

6 صالح بن عمر لعلي: (1870/1928م)، من أجلة علماء بني يسجن ومزاب، من أبرز تلاميذ القُطب وقد خلفه في ميدان الإصلاح والنهضة العلمية الحديثة، ينظر: المرجع نفسه، ج3 ص475 وما بعدها.

يحيى بن الحاج سليمان آل الشيخ[1]، وأحمد بن الحاج إبراهيم حميد أوجانة، والحاج عمر بن حمو بكلي[2]، والحاج ناصر بن إبراهيم الداغور، ويحي بن صالح باعمارة[3]، والحاج عمر بن يحيى[4]، ومحمد بن صالح بن يحي الثميني[5]، وإبراهيم بن بنوح مطياز[6]، وصالح بن الحاج محمد الداودي، وغيرهم..

---

[1] صالح بن يحي آل الشيخ: (ت: 1948م)، من رجال بني يسجن الثوريين والوطنيين البارزين، العضد الأيمن للشيخ عبد العزيز الثعالبي وأحد المساهمين في الحزب الحر الدستوري التونسي، وممن كان له السبب في نجاح مهمة الحزب خاصة في جمع التبرعات . معجم أعلام الإياضية، نفسه، ج3 ص487 وما بعدها.

[2] عمر بن حمو بكلي: (1922/1837م)، من أعلام بلدة العطف البارزين، ومن خيرة طلبة القُطب، وهو صاحب آثار ومواقف تاريخية مشهودة. ينظر: المرجع نفسه، ج3 ص632 وما بعدها.

[3] يحي بن صالح: (1938/1867م)، من مدينة مليكة بمزاب، وهو قاضيها المفوض بتعيين من شيخه القُطب، استقر في منصبه مدة 36 سنة ولم يُنقَض له فيها أيُّ حُكم. ينظر: المرجع نفسه، ج4 ص964.

[4] الحاج عمر بن يحي: (1921/1858م)، من أعلام القرارة ومزاب، ومن بين أنجب تلاميذ القُطب، يعتبر "معهد الحياة" امتداد لمعهده الإصلاحي. ينظر: نفسه، ج3 ص654 وما بعدها.

[5] محمد بن صالح بن يحي الثميني: (1970/1897م)، أحد أفذاذ بني يسجن ورجالها المخلصين، ومن الوطنيين البارزين، عضو اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، ومبعوث الحكومة المؤقتة الجزائرية إلى أمريكا والمغرب. ينظر: المرجع نفسه، ج4 ص803 وما بعدها.

[6] إبراهيم بن بنوح مطياز: (1981/1885م) من علماء بني يسجن النابغين، من أنصار نادي الترقي التابع لجمعية العلماء، وله كتاب "تاريخ وادي ميزاب". ينظر: المرجع نفسه، ج2 ص19 وما بعدها.

لقد أفرغ القُطب من خلال معهده كل جهده في إصلاح سلوك المجتمع ومحاربة الآفات الاجتماعية دون كلل في كل لحظة، وكان هدفه الأول هو خدمة الإسلام قولاً وعملاً، فالإسلام في نظره هو منهج للحياة التي أوجدها الله في طبيعتها الفطرية، إذ يقول الله عز وجل: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" [سورة الروم، الآية 30].

1-4- منهجه في التدريس:

يعتمد منهج القطب في التدريس على استغلال الوقت والتركيز على التلقين، بحيث تستمرُّ دروسه طيلة أيام الأسبوع من الضحى إلى الزوال إلاَّ يوم الجمعة، ثم يزيد دروسًا في المساء بعد العصر.

لا يدرِّس القُطب في الليل إلاَّ الغُرباء والنجباء والمتفوقين، لأنه كان في العادة يخصص الليل للتأليف والإجابة عن الرسائل والاستفتاءات وغيرها، وكان مع ذلك متفانيًا في التعليم فقد تصل دروسه إلى أزيد من عشر دروس مختلفة التخصصات في اليوم الواحد.

وقد يستعمل القُطب اللسان البربري المحلي "اللهجة المِزابية" عند الاقتضاء، ولا يحاسب تلاميذه على الغياب أو الإبطاء، وإذا رأى منهم تعبًا روَّح عنهم بما يدفعهم إلى النشاط والتركيز، كما كان يولي اهتمامًا بالغًا لأسئلة تلاميذه

فيكتبها ويحقق مسائلها، ولا يعجزه شيء عن الرجوع إلى المصادر المختلفة حتى أثناء الدرس.

وقد فتح منهج القُطب في التدريس الباب على مصراعيه لجحافل الطلبة الذين تهاطلوا عليه من كلِّ مكان طلبًا للعلم النافع، وأمام ضيق ذات اليد لم يستطع القطب استقبال كلّ من طلب الدراسة عنده[1]، ومع ذلك فقد تخرَّج على يديه معظم روَّاد الحركات الإصلاحية في مزاب وتونس وليبيا وعُمان كما أسلفت.

1-5- مكانته العلمية:

لقد سطع نجم القُطب مبكِّرًا في سماء ميزاب والجزائر والعالم الإسلامي، وساهم بذكائه وحسِّه الإسلامي المرهف في تحسيس المسلمين بأهمية العلم وضرورته، وكذا بخطورة الاستعمار وسياسته في تجهيل الشعوب وجعلها تابعة له، فعرف المنصفون مكانته العلمية فقدَّروها حقَّ قدرها، وتسارعوا إلى لقائه وإرسال وفود الطلبة إليه، حاملين معهم الهدايا والكتب القيمة من سادتهم ووجهائهم؛ فقد أهدى إليه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نيشانًا عندما حل لغز الماء، في مسابقة وقعت بين معاصريه من العلماء، فقال رجال الأكاديمية الفرنسية: "نحن أحق وأولى من تركيا في تكريم العالم أطفيَّش.."، فأعطوه وسام الاستحقاق: "السعفة الذهبية" (la palme académique).

[1] ينظر: امحمد بن يوسف اطفيَّش، تيسير التفسير، ج6 ص49. وإبراهيم حفار، السلاسل الذهبية، مخطوط، ص41.

وقد كانت للقطب مع سعة مداركه مراسلات إلى أبعد الآفاق الإسلامية، فله رسائل مع سلطان زنجبار "برغش" الذي كان يدفع له منحة شهرية ويشارك في حركة النهضة بطبع المؤلفات الإباضية، كما كانت له مراسلات كثيرة مع أعلام الفكر الإسلامي لاسيما أهل عُمان إذ تلقى سنة 1298هـ/1881م نسخة من "بيان الشَّرع" لمحمد بن إبراهيم الكِندي العُماني، وهذه الموسوعة تحتوي على 71 مجلداً، وأخرى من "قاموس الشريعة" لجميل بن خميس السعدي التي تحتوي على 92 مجلداً.

ومن هنا فإنَّ جلَّ العلماء الذين عرفوه قد شهدوا له بالتفقه والاجتهاد، وهذا الأخير قد ظهر جليًّا في شرحه لمتن كتاب النيل للعلامة عبد العزيز الثميني، وعلى أية حال فإن كتاب "شرح النيل وشفاء العليل" يعد موسوعة فقهية، فالقطب _رحمه الله_ قد عالج فيه كل القضايا الفقهية بنظرة إسلامية تقوم على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وآراء المذاهب الإسلامية جلها، هذا وإن القطب لا يأخذ الآراء الفقهية إلا بعد نقدها وغربلتها حتى يحكم لها أو عليها ولو كان هذا الرأي من مذهبه، وفي هذا يقول الأستاذ يحيى بكوش: "إن القطب بحكم مطالعته الكثيرة، إذا وجد بعد ذلك في المسألة ذاتها رأياً لإمام أو شواهد تؤيد موقفه في كتاب ولو كان مخالفه في المذهب لا يتردد في توجيه الحمد لله تعالى على توفيقه إليها".

أما بالنسبة لمنهجه في شرح كتاب النيل فإنه يورد النص الأصلي من الكتاب فيشرح الكلمات الغامضة ويعربها في بعض الحالات ويزيل إبهامها، وبعد

ذلك يقدم الأدلة الشرعية والنقلية، ويقيم المسألة من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأراء المذاهب الإسلامية.

إنَّ شرح كتاب النيل يوازي الأمهات الفقهية الكبرى، بحيث أعطى دفعةً جديدة للمذهب الإباضي خاصة، والفقه الإسلامي في عصرنا هذا، ومن هنا قيل إن شرح النيل وشفاء العليل، هو موسوعة فقهية كبرى تقف جنباً إلى جنب مع الموسوعات المذهبية الأخرى الذي تتجه إليها أنظار العلماء والباحثين من جميع البلدان.

1-6- مؤلفاته:

لقد بلغ عدد مؤلفات القُطب أكثر من مئة مؤلف في شتى العلوم: الأخلاق، والأصول، والبلاغة، والتفسير، والتجويد، والتوحيد، والتاريخ، والحديث، والحساب، والرسم، والسير، والطب، والصرف، والفقه، والعروض، والفلك، والفلاحة، والفرائض، والفلسفة، واللغة، ومصطلح الحديث، والمنطق، والنحو، والمراسلات المختلفة.. ولعلي أذكر هنا أهم وأبرز مؤلفاته:

أ – علم التفسير:

- هيمان الزاد إلى دار المعاد، مط، ويقع في 13 مجلدًا.
- داعي العمل ليوم الأمل، مخ.
- تيسير التفسير، مط، يقع في 13 جزءاً.

ب – التجويد:

– تلقين التالي لآيات المُتعالي، مخ.

– جامع حرف ورش، مط.

ج – الحديث والسيرة:

– ترتيب الترتيب، إعادة ترتيب مسند الربيع بن حبيب، مطبوع.

– وفاء الضمانة بأداء الأمانة، مط.

– جامع الشمل في حديث خير الرسل، مطبوع.

– السيرة الجامعة من المعجزات اللامعة، مخطوط.

– الغسول من أسماء الرسول، مطبوع.

– رسائل الصلاة على النبي، مخطوط.

– شرح نونية المديح، مخطوط.

د – الفقه وأصوله: وهو أوسع مجالات تأليفه.

– فتح الله: شرح شرح مختصر العدل والإنصاف، مخطوط، في 12 مجلداً.

– جامع الوضع والحاشية، مطبوع.

– شامل الأصل والفرع، مطبوع.

– شرح كتاب النيل وشفاء العليل، مطبوع.

– إطالة الأجور وإزالة الفُجور، مطبوع.

– الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص، مط. – حكم الدخان والسعوط، مط.

– حي على الفلاح (حاشية على كتاب الإيضاح)، مخطوط.

– القنوان الدانية في مسألة الديوان العانية، مطبوع.

– أساس الطاعات لجميع العبادات، مطبوع.

– كتاب التحفة والتوأم في الفرائض، مطبوع.

– شرح كتاب الزكاة، مخ.

هـ – التوحيد وعلم الكلام والفلسفة:

– شرح عقيدة التوحيد، مطبوع.

– الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد، مطبوع.

– فتح الباب للطلاب، شرح معالم الدين، مخ.

– إزهاق الباطل بالعلم الهاطل، مط.

– الجنة في وصف الجنة، مط.

– الرد على الصفرية والأزارقة، مط.

و– اللغة العربية وعلومها:

– نظم متن مُغني اللبيب، في 5000 بيت، مخطوط، نظمه وهو ابن 16 سنة.

– بيان البيان في علم البيان، مخ.

– إيضاح الدليل إلى علم الخليل، مخ.

– ربيع البديع في علم البديع، مخ.

– تخليص العاني من ربقة جهل المثاني، مخ.

ز– التاريخ:

– رسالة موسعة في تاريخ وادي ميزاب، مخ.

– الرسالة الشافية في بعض تواريخ أهل ميزاب، مط.

– مسائل السير، مط.

– كشف الغمة، مط.

حـ – الفلك والحساب:

– مسلك الفلك، (مخ).

– شرح القلصادي، (مخ).

ط – تآليف مختلفة:

– تحفة الحب في أصل الطب، (مط).

– الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

– شرح لغز الماء، (مط).

– النِّحلة في غرس النَّخلة، (مط).

– أجور الشهور على مرور الدهور، (مط).

8-1 – أخلاقه وجهاده التربوي:

إن الدعوة الإسلامية التي طالما دعا إليها الشيخ أطفيَّش تعود إلى إيمانه القوي بنور الإسلام؛ لأن فضيلة التقوى هي أصل مكارم الأخلاق لأنها نابعة من طهارة القلب الذي لا يائي الناس، ولا تفتر إرادته المخلصة أمام الحواجز التي يتلقاها، قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما:

"احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك". أخرجه أحمد والترمذي، ويقول الله عز وجل:﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مُسلمون﴾[1].

كان القطب _رحمه الله_ يخاف ربه ويرجوه في كل شيء في قوله وعمله ودعوته الإصلاحية التي رفع لواءها، وهكذا نجد تلميذه أبا اليقظان يصف لنا شمائله الأخلاقية قائلاً : "كان شديد الوطأة على الفساق والعصاة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، شفوقاً على الفقراء والمساكين، كريم النفس، سخي اليد، عطوفاً على الملهوف، يفكر تفكيراً إنسانياً في أوسع آفاقه، شديد الاهتمام بأحوال العالم الإسلامي يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، عاملاً بمقتضى الأثر كل من قال وآمن بحق الشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو أخي في الإسلام، تلزمني نحوه حقوق كثيرة، أولها النصح في الله[2]، يقول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾[3].

أمَّا الجوانب الأخرى من شخصية القطب المتمثلة في المعرفة العلمية الصحيحة، بحيث أنه أدرك البعد العميق للعلم الصحيح ما دام يسعى إلى سعادة الدنيا والآخرة، يقول _رحمه الله_: الورع بالعلم هو عماد الدين وهو الكف عما يوجب النار، إذن فالعلم الصحيح عنده يجب أن يكون مبنياً على التقوى وإخلاص

---

1 آل عمران/ 102.

2 ينظر: إبراهيم أبو اليقظان، ملحق السير، ج3 ص 154 وما بعدها، مخطوط.

3 التوبة/ 71.

النية لله عز وجل خدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة تدريساً وتأليفاً وسلوكاً، وهذا لن يكون إلا لمن التزم بالقيم الأخلاقية الإسلامية العالية وحارب الجهل مهما كانت طبيعته، وهو الأمر الذي لا يحصل إلا لمن اكتسب أمهات الكتب الدينية والعلمية والمنطقية.

وعلى ضوء هذا فإن الشيخ أطفيَّش _رحمه الله_ استطاع أن يملك مكتبة عظيمة جداً، بالرغم من الحواجز المادية والطبيعية والبشرية التي تقف أمامه آنذاك، يقول الأستاذ محمد علي دبوز: "وكانت مكتبته تحتوي على آلاف من نفائس الكتب، لقد استطاع بجده وعزيمته الفولاذية وغرامه وشغفه بالعلم أن يملك من الكتب النفيسة في أعماق الصحراء في وقت الفتن وصعوبة المواصلات، وقلة المطابع ما لم يملكه أغلب العلماء الجامعيين اليوم"، إن امتلاك هذه المكتبة العظيمة من القطب رحمه الله لهي دليل كبير على شغفه بالعلم وخدمته، لأن هذا العلم الصحيح لا يقل عن الجهاد بالنفس، ولنتأمل هذا الحديث الشريف: (عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد قال: رسم المداد في ثوب أحدكم إذا كان يكتب به علما كالدم في سبيل الله، ولا يزال ينال به الأجر مادام ذلك المداد في ثوبه) – جامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب–.

بناء على هذا الحديث الشريف نقول: إن القطب رحمه الله قد شمَّر عن ساعده، فجد كل الجد في البناء التربوي حيث تمكن من إنشاء معهد إسلامي في مدينة بني يزقن محاولاً بذلك إصلاح المجتمع وتربيته تربية إسلامية تقوم على أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية، وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم، والجدير

بالملاحظة أيضا هو أن القطب _رحمه الله_ قد شخَّص تلك الأخلاق الإسلامية في سلوكه وسلوك طلابه الذين عاشوا الإسلام عقيدة وعبادة وسلوكاً، وسخروا كل طاقاتهم الفكرية والمادية لإعلاء بناء الإسلام، وهكذا فإنَّ الطلبة الذين تخرجوا من معهد الشيخ أطفيَّش حملوا مشعل النهضة الحديثة في العالم الإسلامي.

1-9- جهاده الاجتماعي: إنَّ القطب أطفيَّش _رحمه الله_ قد سلك نهج الصالحين العاملين في جهاده الإسلامي، إلا أن الوصول إلى هذا الطريق الإصلاحي ليس بالأمر الهين، نظراً إلى سعي معارضيه الذين حاربوه وضايقوه في جهاده، فطالما استفزوه في إصلاحه ليلاً ونهارا، فشعر بأن دائرة السوء تسعى بكل قواها كي تحطمه وتنهي نهضته الإصلاحية في مهدها، كما بين ذلك في رسالة بعثها إلى بعض إخوانه العُمانيين قائلا: (فسلامٌ على الشيخ العالم عبد الله بن حميد والشيخ الفهامة عيسى بن صالح الفارسي من كاتبه أمحمد بن الحاج يوسف، أعذرني يا أخي في تأخير الجواب بعض التأخر وما ذلك إلا لأهوال عظام من النصارى ومن أهل بلدي..) [1].

لا شك أنَّ المجتمعات البشرية لا ولن تخلو من الصراع بين رجال الفضيلة ورجال الرذيلة وبين أهل الحق وأهل الباطل، إلاَّ أن عزيمة الصادقين هي من يكون لها الغلبة في النهاية لأن الباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة.

[1] امحمد بن يوسف أطفيَّش، كشف الكُرب، طبع وزارة التراث، سلطنة عُمان، ط1، 2000، ج1، ص 86.

من هنا يتبين لنا من خلال استعراض المسار التاريخي للأحداث التي واكب القُطب أطفيَّش معظمها، أن هذا الأخير قد خاض معركة الكفاح الاجتماعي لعدة سنوات مبيناً المنهج الإسلامي الصحيح، رافضا كل مظاهر الجمود الفكري والتعصب المذهبي، داعياً إلى العلم النافع وتطهير النفوس من أدناس الجهل والتخلف، مجابهًا في جهاده الاجتماعي مختلف الأعداء حتى من اشترى الاستعمار ضمائرهم من ضعاف النفوس، ممن سخَّرهم هذا الأخير لمجابهة القُطب في جهاده الإصلاحي.

1-10 – محاربته للاستعمار الفرنسي:

إن الشيخ أطفيَّش رحمه الله يمثل الجبهة الصلبة المعارضة لفرنسا عند وصولها إلى وادي مزاب، وكان يدعوا إلى الجهاد وعدم التعامل معها مادياً وعسكرياً، وحتى تجارياً، وهكذا فإن الجنرال الفرنسي "دولاتور" قد سجنه في نوفمبر 1882م مباشرة بعد وصوله إلى وادي مزاب بأمر من الوالي العام الجزائري ليُقنع العزابة بعدم جدوى وفاعلية مقاومتهم لإلحاق مزاب بالاحتلال الفرنسي، ناسين أو متناسين أن القُطب يعتقد جازماً أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، مردِّداً هذه العبارة الأخيرة في كلِّ مرة معتزًّا بالإسلام أيما اعتزاز.

ومن طريف ما يروى عن القُطب أنَّ وفداً فرنسيًّا زاره في الدار التي يدرس فيها، وذلك قصد تسليمه وسام الاستحقاق عن حلِّه لُغز الماء الذي حيَّر العلماء، وكان ضمن هذا الوفد القائد العسكري العام الفرنسي في الجزائر ومجموعة من الضباط الفرنسيين والقساوسة، وحينما دخلوا عليه الدار وجدوه جالساً يدرّس طلاَّبه،

ولما وقفوا أمامه قام القُطب واعتلى بعض الدُّرُج، فطلب منه حاكم التراب أن ينزل ليقلّده رئيس الوفد النَّيشان، فأجابه القُطب قائلاً: "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه"، وعندما دنا منه أحد الجنود ليعلق له الوسام على صدره أرخى له القطب طرف بُرنُسِهِ من الأسفل وقال له علِّقه هنا إن شئت...

وكان يستدعى مرَّات إلى التحقيق بسبب جرأته المستمرة على السلطات الاستعمارية في بلدته وسائر قرى مزاب، حتى إنه فُتِّش وسُئل مرَّات عن وضعه الطابع البريدي مقلوباً إلى الأسفل على أظرفة البريد، وقد يبدوا للبعض بأن هذا السلوك تصرف ساذج، إلاَّ أنه في حقيقة الأمر شكل من أشكال الرفض الصريح والمتواصل لكل أشكال تواجد المستعمر.

1-11- رحلاته وأسفاره:

لما ذاع صيتُ القُطب تهافت الطلبة عليه من كل مكان، وطلب الملوك والأمراء لقائه كذلك، فأرسل له الكثير منهم يطلبون تشريفه بزيارة بلدانهم؛ إلاَّ أنَّ اشتغاله المستمر والمتواصل بالتربية والتعليم أخذا جُلَّ وقته، فاستعاض عن الرحلات إلى الأمصار البعيدة بالمراسلات المختلفة إلى أولئك الملوك والوجهاء والأعيان، فمن خارج الجزائر راسل شخصيات من البحرين والحجاز، وعُمان ومصر وتونس وجبل نفوسة، والقُسطنطينية وبعض العواصم الأوربية، ولو جمعت تلك المراسلات لكونت مجلدات ضخمة فيها من أنواع المعارف والأخبار التاريخية فوائد كثيرة مهمة.

مع ذلك فهو يزور مدن وادي مزاب باستمرار لإلقاء الدروس والفتوى، مثل عادة زيارته لمدينة بريان التي غالباً ما تكون مرَّتين في السنة في الربيع والخريف، وهذا لإلقاء الدروس والوعظ والإفتاء،.. كما زار مدينة القرارة مراراً.

وقد زار القطب وارجلان (ورقْلة) سنة 1320هـ/ 1902م، فتلقاه أهلها من خارج المدينة بطلقات البارود احتفاءً بوصوله إليهم، ومكث بها أسبوعين[1].

ويعود سبب قلة رحلات القُطب كما أسلفت إلى أوضاعه الشخصية، كاشتغاله منذ سنٍّ مبكرة بالتدريس الذي تطور من حلقات إلى طبقات، وما يتطلبه ذلك من التفرُّغ والتحضير الجيِّد، أضف إلى ذلك سياسة التضييق الممارسة عليه من طرف المستعمر الفرنسي وأذنابه، والتي عانى من ويلاتها القُطب وطلبته الكثير، ولعل من أحقرها إجبارية طلب رخص التنقل بين قرى مزاب وخارجها.

1-12- وفاته:

توفي القُطب _رحمه الله_ بعد عمر طويل قضَّاه في الطاعات، وقد شهد له جميع من عرفوه من العلماء الأعلام بالرسوخ في العلم، توفِّي بمرضٍ دام أسبوعًا ولم يمرض من قبله بمرض معجزٍ، بعد أن قضى قرابة القرن في الجهاد العِلمِي والإصلاح الاجتماعي، عن عُمرٍ يناهز 96 سنة.

[1] ينظر: إبراهيم بابزيز، كلمة ألقاها بمناسبة مهرجان القطب، حول رحلة هذا الأخير إلى وارجلان، أعمال مهرجان الشيخ أطفيَّش، بني يزجن 1980، مكتبة الحاج سعيد محمد، جمعية الشيخ أبي إسحاق لخدمة التراث غرداية، الجزائر.

وتذكر بعض المصادر أنه كان من السبعة المقتولين بالسم سنة 1914م، إذ وضع له أحد العملاء الفرنسيين سُمًّا في حذائه تسبب في وفاته بعد أسبوع[1]، وتوفي يوم السبت 23 ربيع الثاني 1332هـ/ مارس 1914م).

وقد ذكر الشيخ عامر المحفوظي تأريخاً لذلك بأن القطب قد اجتمع مع مجموعة من علماء الجزائر في منطقة "بَرِّيش" التابعة لمنطقة "مَسعَد" بالجلفة، دعا إليه الشيخ عبد الرحمن طاهري في مطلع سنة 1914 بعنوان "ثلاث ليال في الصحراء"، وقد كرّس الملتقى لتوحيد صفوف الجزائريين ودعوتهم لانتفاضة عارمة يقودها المغاربة والجزائريون والليبيون ضد الاستعمار الفرنسي والإيطالي، وأوفد سفيراً هو الشيخ المبروك الأخضري للزعيمين الليبيين الشيخ السنوسي وعمر المختار، ودعاهم للتعبئة العامة، لكن المستعمر اعتقله في حدود "توقّرت" وأعدم بعد ذلك في العاصمة[2]...

قلت الراجح _والله أعلم_ أنَّ الشيخ أطفيَّش قد قضى مسموماً في نفس السنة لذات الأسباب؛ ففرنسا كانت تعدّ العدة لتلج جبهات القتال في أوربا (الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918)، وقد فكرت مليّاً _دون شك_ في تأمين جبهاتها الداخلية في مستعمراتها الكثيرة في إفريقيا خاصة، بالقضاء على بذور أي "مقاومة

[1] لم ينفرد بهذه الرواية إلاَّ الشيخ حمو عيسى النوري، نقلا في رواية عن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم أطفيَّش، ينظر: حمو عيسى النوري، نبذة من تاريخ المزابيين، ج1 ص326.

[2] ينظر: عامر بن المبروك المحفوظي، تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نايل، ط1، 2002، ص25.

شعبية" يمكن أن تحدث في ظل غياب جحافل قواتها عن المنطقة واشتغالها بقتال ألمانيا النازية وحليفاتها في أوربا...، لذلك بادرت باغتيال كثير من العلماء والمصلحين بالسم وغيره خلال تلك الفترة بالذات، وهو ما لاحظه الشيخ المؤرخ محمد علي دبوز أيضاً.

2- إبراهيم بن بكير القراري وكتابه "السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيّة":

2-1-التعريف بالمؤلف:

إبراهيم بن أبي بكر القراري، حفَّار؛ (و:1308هـ / 1890م ـ ت: 17 ذو القعدة 1373هـ / 18 جويلية 1954م): ولد في القرارة بميزاب، وتربَّى في أحضان أبيه؛ في عام 1314هـ/ 1896م دخل معهد الحاج عمر بن يحيى (ت:1339هـ/1921م)، فحفظ القرآن الكريم واستظهره في 1324 هـ/1905م؛ وفي شهر شوال من السنة الموالية أرسله شيخه إلى معهد القطب الشيخ امحمَّد بن يوسف أطفيَّش ببني يسجن (ت: 1332هـ/1914م)، رفقة الشيخ أبي اليقظان إبراهيم، فمكث فيه خمسة أعوام، وقد خصَّه القطب _لنبوغه_ بدرس في غير الوقت العام للطلبة؛ ومن مشايخه بميزاب أيضا: إسماعيل بن إبراهيم زرقون (ت: 1341هـ/1922م)، وعبد الرحمن بن عمر نوح (ت: 1332هـ/1914م).

عندما انتقل إلى تونس لمداواة بصره في عام 1330هـ / 1912م، اِغتنم الفرصة وأخذ علم القراءات عن الشيخ محمد النورقي في جامع الزيتونة، وختم القرآن الكريم عنده على القراءات السبع.

وعند رجوعه من تونس – كفيفاً – إلى مسقط رأسه القرارة سنة 1334هـ / 1915م، أنشأ مدرسة لتعليم القرآن وعلومه، فقصدها الطلبة من جميع قرى ميزاب، دامت خمسة أعوام ثمَّ أُغلقت.

وفي سنة 1339هـ / 1920م تولَّى إدارة المدرسة القرآنية التي أنشئت بمدينة غرداية؛ ولمَّا أغلقها الإستعمار الفرنسي رجع إلى القرارة، وبعدها قصد بني يسجن في 1343هـ / 1925م للتعليم في مدرسة أنشأها عبد الله بوكامل؛ وفي سنة 1361هـ / 1943م ساهم في إنشاء المعهد الجابري، وكان من أبرز الشيوخ به إلى أن توفي.

قام بتدريس علم التجويد والقراءات وعلوم اللغة العربية، فأخذت عنه جموع من الطلبة والعامة «فازدادت الألسن تقويماً، والقراءات تحسيناً»؛ من تلاميذه: إبراهيم بن بنوح متياز، وسليمان بن داود بن يوسف، ومحمد بن يوسف ببانو، وعبد الحميد أبو القاسم، ومحمد ابن بنوح نوح مفنون، وبلحاج بن عدون قشَّار، وعمر بن يوسف عبد الرحمن، وإبراهيم بن محمَّد طلاي... وكلُّهم من علماء ميزاب ومشايخه.

له مؤلَّفات وفتاوى ومنظومات مخطوطة منها:

1. «رسالة شروط المفسِّر»، مطوَّلة.

2. كتاب «السلاسل الذهبية بالشمائل الطُّفَيْشِية» في ترجمة شيخه قطب الأيمة.

3. «شرح المخمَّسة وتحريض الطلبة» لأبي نصر فتح بن نوح الملوشائي.

4. «منظومة الحيض والنفاس»، و«منظومة الصيام».

وقد وضع مع أبي اليقظان إبراهيم عدَّة حواشٍ – مخطوطة – على كتب من بينها:

1. «حاشية على كتاب الديانات».

2. «حاشية على كتاب الموجز» لأبي عمَّار عبد الكافي.

3. «حاشية على الدرر اللوامع» في التجويد.

4. «حاشية على التكميل لما أخلَّ به كتاب النيل» لعبد العزيز الثميني[1].

2-2- موضوع الكتاب وفصوله:

بين يدي الكتاب:

الرسالة المسمّاة "السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة" من وضع الشيخ إبراهيم بن بكير حفَّار السالف الذكر، وقد قام بنسخها تلميذاه: الشيخ الحاج محمد بن يوسف

[1] ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص25.

ببانو[1]، والشيخ عمر بن يوسف عبد الرحمن[2] اليسجنيين، وأخرجها من دون تحقيق حفيد القطب أطفيَّش، الأستاذ محمد بن الحاج محمد بن الشيخ الحاج محمد أطفيَّش، وهو قيّم مكتبة القطب العامرة منذ عقود وما يزال، ذكر أنه أخرجها من نسخة واحدة هي نسخة الشيخ عمر بن يوسف عبد الرحمن، لتميّزها بخطها

[1] محمد بن يوسف، ببانو (و: 1313هـ/1896م – ت: الثلاثاء 16 محرَّم 1409هـ/27 سبتمبر 1988م): من مواليد بني يسجن بميزاب. شدَّ الرحال إلى تونس عام 1919م، فانضمَّ إلى بعثة الحاج صالح باعلي، والتحق بالزيتونة، وفي جويلية 1923م عاد إلى ميزاب، وفي سنة 1927م استدعاه الحاج صالح لعلي ليدرِّس بالمدرسة الجديدة بجوار المسجد، وعيِّن عضوا في حلقة العزَّابة ببني يسجن، ظلَّ يدرِّس بالمدرسة الجديدة إلى غاية 1940م، ويحضر دروس الشيخ إبراهيم حفَّار وحلقاته العِلمِيَّة المتخصِّصة؛ أنشأ المدرسة الجابرية للذكور سنة 1941م، وفي سنة 1974م ساهم في تأسيس المدرسة الجابرية للبنات. ومن أبرز نشاطاته في الحقول الأخرى إلقاؤه لدروس الوعظ على النساء، وإنشاؤه لجمعية المديح الشعبي. ولإخلاصه وتفانيه ارتقى في سلَّم نظام العزَّابة: من عضو إلى وكيل على الأوقاف، ثمَّ قلِّد رئاسة الحلقة، واشتغل ناظرا للأوقاف الإباضية لخدمة الحجيج بين 1962 و1978م. وبعد وفاة الشيخ عبد الرحمن بكلي (البكري) اختير بالإجماع رئيسا لمجلس عمي سعيد بتاريخ 27 جمادى الأولى 1406هـ/ 6 فيفري 1986م. ترك مكتبة من أكبر مكتبات وادي ميزاب، وأغناها بالمخطوطات، أدمجت مع مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي ببني يسجن؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص852

[2] عمر بن يوسف عبد الرحمن (و: 1334هـ/16 سبتمبر 1916م – ت: 16 محرم 1417هـ / 12 جوان 1996م): ولد في يسجن، وتعلم فيها منذ صباه، كان أكثر أخذه من الشيخ حفار، وكان خطيباً مصقعاً ونسّاخاً ماهراً، له أعمال جليلة في مجال العلم والمجتمع في مزاب والشمال، وافاه أجله بعد معاناة مع السكري بمسقط رأسه وفيها دُفن بمقبرة الشيخ حمو بن يوسف؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص55.

الواضح والمنمّق الجميل، قائلاً في ذلك: "...نقلها الناسخ الماهر الشيخ عمر عبد الرحمن اليسجني من خط الشيخ الحاج محمد بن يوسف بابانو في رحلة استجمام بالجزائر في السبعينيات من القرن العشرين كما كتب في ختامها، وكلا الشيخين من تلاميذ الشيخ حفّار ونُسَّاخِهِ، فنُسخة الشيخ عمر عبد الرحمن قد عمَّ نفعها وذاع صيتها، لوضوح خطه، ومنها نقلت أخي القارئ هذه النسخة التي بين يديك، واستغنائي عن نسخة الشيخ بابانو ربحاً للوقت، والأصل هو المقابلة بينها وبين نسخة الشيخ عمر لأنهما كانا ينسخان للشيخ..."[1].

مقدمة الكتاب:

دبّج المؤلف كتابه بمقدمة طويلة مستطرداً فيها على نمط كُتَّاب عصور الضعف، ومطرّزاً إياها بِحُللٍ كثيرة من المحسنات البديعية كالطباق والجناس والمقابلة، ومن ذلك قوله: "الحمد لله الذي منه الوجود وإليه المآب،... من يجدد للأمة أمر دينها أيَّما تِجداد على رأس كل مائة من سِنيِّ الأعداد... أما بعد:

فلمَّا كان ذكر آثار الأسلاف وفضائل الأوائل والأفضال مما يزيد في جبين الدهر سطوعاً ولمعاناً، وفي أفكار الأخلاف من أبنائه جدّة وطلاوة، وفي صوارم عزائمهم صفاء وحلاوة، ولأفئدتهم تأييداً ورزانة، ولأقدامهم رسوخاً وتوئَدَة...، ومن أجلِّ من ينبغي أن تُرسم وتُنشر أعلام شمائله، ودرر مآثره، ونفائس سيره على صفحات الأعصار، وعلى زوايا الأمصار، نادرة الزمان وتحفة المكان، وعِصمة

[1] ينظر: إبراهيم بن بكير حفَّار، السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة، إخراج محمد بن الحاج محمد أطفيَّش، ط2، 2013، ص3 – 4.

الجَنان، مفخرة المتأخرين وأمنية المتقدمين...، سيدي وسندي الحاج أمحمد بن يوسف بن عيسى أطفيَّش، خطر بالخاطر الفاتر وأناخ على الباصرة الداثرة أن أضع على جيود الصحائف من جواهر معادنه عقوداً من كتائب فرائده، تتشرف بها رُجَبُ رَاحَاتِ هِمَمِ أبناءِ جِنسِهِ، وتسرح الناظر في رياض رُباها أهل آوِنَتِهِ"[1]...

أما نهاية الرسالة فغير موقَّعة، أي خالية من ذكر تاريخ الانتهاء من وضعها أو اسم واضعها، وهو ما درج عليه الأقدمون في وضع مؤلفاتهم، وآخر فصل يتناول التدريس والتأليف عند القطب أطفيَّش؛ وعبارته الأخيرة حديث عن تصحيح الأغلاط وردّ العبارات الخاطئة عند بعض المؤلفين، ومن ذلك حزن الشيخ من ردّ ابن هشام في كتابه المغني على أبي حيان بعض العبارات بتشديد الإنكار وإقدام الجفاء مثل: وهو مردود أو غير صحيح أو فاسد أو هُم محجوجون أو نحوه؛ إلى أن يقول المؤلف: ...وأنت خبير بكونه شيخه وبكون مُغنيه[2] استعاره واستجناه من ساحل بحره؛ انتهى. هذا ما وجدته من هذه الرسالة بدون إشعارٍ بانتهائها، وكان فراغي من نسخها[3] حال كوني بمدينة الجزائر في إجازة للاستجمام والراحة؛ تاريخ: 30 شعبان سنة 1393هـ يوافقه: 1 سبتمبر 1973م"[4].

---

[1] ينظر: المرجع السابق، ص11، 12.

[2] أي: كتاب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري.

[3] الناسخ: عبد الرحمن الحاج عمر بن يوسف.

[4] إبراهيم بن بكير حفَّار، السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة، ص61.

2-3- الدافع إلى تأليف الكتاب:

يقول المؤلف في ذلك: "رغّبني في إظهار هذا الأمر من حيّز العدم إلى حيّز الوجود، وجمع ما تشتَّتَ في الألسنة بواسطة الآباء والجدود، بعضُ الإخوان _أصلح الله لنا ولهم الشأن، وألهمنا في السؤال بأفصح البيان، وبأنفع الحُجج وأوضحِ التِّبيان_ فَأيَّدَ تَرغِيبَهُ ساعِدِي، وأنشط الفؤَادَ وَشَدَّ عضُدِي، فأجبتُ لِمَرغُوبِهِ، وسَاعفتُ لِمَطلُوبِهِ، مُستأنِساً في ذلك بأنَّ التَشَبُّهَ بأهل الكرام وأهل النجاح صلاحٌ وفلاح[1]، والتشبُّت بأذيال فحول الكمال...، ومستعيناً على الظفر بالمقصود، وبلوغ المأمول، بمن بيدِهِ أزِمَّةُ العون والتوفيق، وبعينه مصارف الضبط والتحقيق، ومستمداً الفتح والمدد بسرِّ الفاتحة من بركة هذا الشيخ الذي هو تاج الفُحول، وساعِدُ المعقولِ والمنقولِ...، وسميتها "بالسلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة"، وأن يُقبَلَ عليها بعين الرضا والقبول، لا بعين السخط والانتقام، وأن يُنتفع بها في قيد الحياة فما بعده إلى يوم الزحام"[2].

يتطرق مؤلف الرسالة بعد ذلك إلى جملة من التوضيحات سمَّاها (تنبيهات)[3]، تطرّق فيها إلى مسائل ثلاث هي: التماس العذر لقراء الرسالة مما قد يوجد فيها من النقص والخلل، ثم بيّن مسلكه في الكتابة مصحِّحاً بعض المفاهيم الخاطئة، ثم

---

[1] اقتباس من قول الشاعر: إذا لم تكونوا مثلهم فتشبهوا فإنَّ التشبُّه بالكرام فلاحُ.

[2] ينظر: إبراهيم بن بكير حفَّار، السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة، ص12، 13.

[3] الراجح أنَّ هذه اللفظة من وضع المؤلف.

الاستطراد في ذكر بعض الفوائد تعميماً للفائدة، وأخيراً ذكَّر بمسألة التثبت عنده في نقل الأخبار؛ وقد رتَّبها كما يأتي:

"الأول: يسأل الجامع لهذه الدُّرر في عقد قُطب دائرة أهل النظر...، ابن أبي بكر المشهور بالقراري[1]، ممن طالع فيه أو راجع فوجد بعد إمعان النَّظر، وتثبيت الفكر، خللاً أن يُصلحه وله الفضل، أو جللاً أن يدعو الله للجامع وهو محور العدل، ولا يبادر فيه للإنكار، وقطع الأعذار، فرُبَّ شيءٍ يظهر فساده لذي الفهم القبيح، وهو في الحقيقة ثابت وصحيح، ومن ألَّف فقد استُهدف، والمتكلِّم في قبضة السامع، وبالكيل الذي يكيل المرء يُكال له به"[2].

الملاحظ في أوّل هذه العبارة التواضع الجمُّ من المؤلف، حيث نبّه بأدبٍ إلى ما يمكن أن يكون قد وقع في الزلل فالكمال لله، وشدّ على القرّاء أن يصوّبوه لكن بعد التأكد من مراد المؤلف ومقاصده، وفي ذلك إشارة ذكية منه لما يقع فيه كثير من القرّاء غير المتمرسين من سوء الفهم للمقصود والمراد، فيتسرعون إلى تأويل مسائل الكتاب تأويلاً خاطئاً أو يصححون عباراته تصحيفاً وتحريفاً، وفي هذا تنبيهٌ من المؤلف للقراء المبتدئين أن يتمرسوا فنون القراءة والنقد، ويُعملوا عيون العقل فيما يقرؤون أولاً وأن لا يبادروا إلى الإنكار وقطع الأعذار...

[1] أي: المؤلف الشيخ إبراهيم بن بكير حفار القراري.

[2] إبراهيم بن بكير حفَّار، السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة، ص13، 14.

أما التنبيه الثاني وهو الأطول فقد خصّصه المؤلف لبيان منهجه في الكتابة، مركِّزاً على الرد بدحض الروايات التاريخية المشوهة لحياة القطب أطفيَّش _رحمه الله_ ومما ألصق به العامة من الخوارق ما يعجز عن إدراكه الإنسان العاقل، وقد عزا ذلك إلى ما شاع في عصره وقبله من كرامات رجال الصُّوفية، ولشدة إعجاب العامة بعلمه وفهمه فقد ألصقوا به ما ألصقه المتعلقون برجال الصوفية من الأوهام والخرافات...؛ وفي ذلك يقول: "الثاني: أنِّي أسلُكُ فيما أنقُلُ من ذلك مسلَكَ العدلِ والإنصافِ، لا مسلك التحمُّلِ والاعتسافِ، فلا أرخي عنان القلم لجادة الغلو والمبالغة والإدِّعاء المفضيينِ للخروج عن مألوف أهل النظر، وعن المتعاهد من طوق البشر، مما لا أصل له من طريق الدِراية، ولا من طريق الرِّواية، بل هو من موضوعات العامَّة، كما تُروِّجُهُ في ذلك من أنَّه –أي الشيخ أطفيَّش– في كُلِّ عَرَفةٍ يحضر الموقف مع أهلِهِ بطيِّ الأرض له، ولا أصل لذلك، فإنِّه رُوقِبَ مراراً فإذا هو بِدَارِهِ بالمشاهدَةِ والعَيَان من الطلوع إلى الغروب...، وكما شاع وذاع في الألسنة من أنه لم يأخذ مضجعه ليلاً ولا نهاراً سبع سنين، إلاَّ ما كان من سِنةٍ يختلسها قائماً أو قاعداً، ولا يروجُ هذا علينا إذ ليس من طوق البشر أن يتَّفقَ له ذلك ولو سبعَةَ أيامٍ فضلاً عن أعوامٍ !! وكما اشتهر في غالب الألسنة وتلقته بعض الآذان بالقبول من أنَّ علمهُ إنَّما هو بواسطة الفيض والإلهام، لا بواسطة الكسب والإلزام، وقضية ذلك أنه رِيءَ على جانبٍ وافرٍ، ولم يزل بمعارج الكمال ظافراً، بحيث أنه حصَّل مِن المعارف، وأناخ على معظمها في أقصر مدّة، ولم يُزاحم بركبتيه رُكب فحول العلماء قدراً يتمكَّن فيه من ذلك ولا رِيءَ غيره تحصَّل على مثل ما تحصَّل هو عليه من الكثرة وقلّة المدّة...، على أنّ علم الديانة أصلاً

وفرعاً لا يدرك بدون التعلّم، نعم قد تفيض الفتوحات الربانية بواسطة المواظبة والخلوص من العلائق والأدناس، بعد تحصيل الملكة كما جاء في الخبر: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم"[1].

وقد كان تحليل المؤلف معقولاً ومقبولاً؛ إذ دفع عن القرّاء أو المستمعين عن سيرة القطب أطفيَّش ما قد يتسلل إلى أذهانهم من الخوارق والخرافات التي لا يستسيغها العقل السليم، فنبَّهَ القارئ إلى ما يجب من إتباع سواء السبيل.

أمَّا التنبيه الثالث فقد خصَّصه المؤلف للتنبيه على الاستطرادات التي قد يلاقيها القارئ في كتابه فهي مقصودة؛ فالمراد منها إتمام الفائدة وبيان جملة وتفصيل مآثر القطب أطفيَّش وتخليدها، وهو المراد من وضع هذه الرسالة، وفي ذلك يقول: "الثالث: أنه ربّما تجرُّ أذيال الكلام وأطرافه لذكر بعض علماء المذهب وغيرهم أو البلدان أو السوح أو نحو ذلك، فنتعرض له ولبعض ما يتعلق به بطريق الاستطراد تتميماً للفائدة والمراد"[2].

التنبيه الرابع والأخير خصصه المؤلف للتذكير بمسألة التثبت عنده في نقل الأخبار، وقد بيّن سبب ذلك وعلَّله بالقول: "إني لا أنقلُ في ذلك إلاَّ ما صحَّ وثبت بطريق عدولٍ أو عوادل أو شُهرةٍ مستفيضةٍ؛ فلا تُحدِّثُكَ نفسُكَ في بعض ذلك بشكٍّ أو ارتيابٍ، وذلك لأنه قد يتعذّر التصريح بالمنقول عنه لكونه بحيث يُصان المقام

[1] إبراهيم بن بكير حفَّار، السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة، ص14، 15.
[2] المرجع نفسه، ص15.

بعدم ذكره، بل لغرض أن لا يطول ذيل الكلام بشيء لم تمسّ الحاجة إليه تارةً، أو لأنَّ التصريح بأسماء المنقول عنهم غير لازمٍ تارة أخرى، وحيث استطال لسان القلم أو انبسط استحكمت فيه وحكمت عليه بالقَطِّ"[1].

2-4- منهج المؤلف في الكتاب:

التزم المؤلف قدر الإمكان ما صرَّحَ بِهِ في أوَّلِ خطة الكتاب، خاصة ما تعلَّق عنده بالتثبت في نقل الأخبار، مع ما يتخلل الرسالة من الاستطرادات والفوائد العلمية والتنبيهات الدقيقة، والتي يراها المؤلف مما يتمّ الفائدة ويعمّمها.

أمّا عن التثبّتُ في نقل الأخبار فتأكيده على نقل ما سمعه من القطب أطفيَّش مباشرة أو عمّن يوثق به لا غير؛ وهو في أكثر من موضع، من ذلك قوله: "وسمعتُ منه مشافهة بعد أن حدَّثني غير واحدٍ..."، وقوله: "...حدثني غير واحدٍ ممن يوثق به ورأيتُ مكتوباً بخطه..."[2]، وقوله أيضاً: "قال الإمام أطفيَّش في بعض تقاييده..."[3]، وغيرها كثير، مما يدلّ على أمانة وحرص الشيخ حفّار في نقل الأخبار الصحيحة والثابتة عن القطب أطفيَّش _رحمه الله_.

أما منشأ الاستطرادات فهو راجعٌ فيما يبدو إلى أسلوب الحكاية أو السرد المستفيض من المؤلف على من يكتب له؛ فهو ضريرٌ على ما نعلم، لذلك تجده

---

[1]- المرجع السابق، ص15.

[2]- نفسه، ص31.

[3]- نفسه، ص26.

يواصل الأخبار ويربط بعضها ببعض في كتابه، كالمسترسل في مجلس للأصحاب لا يستطيع التوقف عن الحديث حتى يستوقفه أحدهم بالسؤال عن موضوع آخر، وفي ذلك ينطبق عليه قول العربيِّ: "الشَّيءُ بِالشَّيءِ يُذكَر"، ومثال ذلك أنه لما أتى إلى ذكر نسب القطب أطفيَّش انتهى إلى جده الأدنى "الشيخ محمد" وهو ممن يُنسب إليه الدين؛ انتقل المؤلف إلى الحديث عن جُبيل أبي العباس أحمد الويليلي[1] وذكر شيئاً من الكرامات المرويَّة عنه في كُتب السير[2]، لأنَّ هذا الأخير هو جدّ المقبرة التي يشرف عليها جُبيل معبد أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الويليلي.

والراجح أنَّ نفس الموضوع أي الاستفاضة في ذكر نسب القطب أطفيَّش في أوّل الكتاب هو الذي حمل المؤلف على ذكر الشيخ عبد العزيز الثميني _صاحب كتاب النيل_ لأنهما يلتقيان في شجرة النسب، وهو على عظيم قدره ورفعة مكانته

[1]– أبو العباس أحمد الويليلي الشهير بـ«بُوعْمَيَّد»؛ (حي في: 472هـ / 1079م – ت قبل: 504هـ / 1111م): من العابدين المنقطعين، والزُّهاد المتنسِّكين؛ سكن قصر «تين يسلمان» بوادي ريغ، في عهد كان فيه مركز إشعاعٍ في العلم والدين؛ وتروي كتب السير أنَّه طلع في شهر من شهور رمضان إلى جبال بني مصعب، ولازم ربوةً يتعبَّد فيها، إلى أن أدركته ليلة السابع والعشرين، فحدثت له فيها كرامة مشهورة، لا تزال تذكر على ألسنة عامَّة الناس وخاصَّتهم؛ وعلى الربوة المذكورة مصلًّى يفِد إليه الزائرون في المناسبات المختلفة للتذكرة والاعتبار، وهو يقع قِبلة بني يسجن، ويسمَّى حاليا: جبل أبي العبَّاس، أو مقام بوعميَّدْ، ينظر بتفصيل: الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج2، ص433 – 434.

[2]– إبراهيم بن بكير حفَّار، السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة، ص25.

العلمية وثبوت قدمه في المعقول والمنقول مما دفع المؤلف للاستطراد في ذكر تفاصيل كثيرة عن حياته وآثاره؛ ومنه أيضاً حديث المؤلف الشيخ حفَّار عن الرؤى والأحلام المروية عن القطب أطفيَّش فقد جرّه عند ذكر إحداها أن يذكر أخرى وأخرى، حتى إذا شعر بأنه قد أطال في ذلك الموضوع توقف لينتقل إلى غيره[1].

2-5- القيمة العلمية للكتاب:

من الفوائد الكثيرة لكتاب "السلاسل الذهبية بالشمائل الطُفيشيَّة" أنَّ مؤلّفه قد وضع فيه تراجم لأعلام كثيرين لم يسبق ذكرهم في كتب التراجم لأنهم من المتأخرين نسبياً، ومنهم على الخصوص شقيق القطب امحمد أطفيَّش وهو الشيخ إبراهيم بن يوسف أطفيَّش، وعنه يقول: "وأمَّا الشيخ إبراهيم بن يوسف بن عيسى فأخوه وصِنوُهُ لأبيه وأمّه، كان أكبر منه سنّاً، وله يدٌ في علم سرِّ الحرف، وله بسطةٌ في الفروع والأصول والنحو وغيرها من الفنون المتداولة، وقد تصدّى للفتوى في يسجن زماناً، وعنه أخذ أخوه الأستاذ[2] مبادئ النحو والفقه وغيرهما..." [3]،

---

[1]- الرؤى التي ذكرها الشيخ حفَّار في كتابه متسلسلة هي: "رؤيا والد القطب للرسول صلى الله عليه وسلم بعرفات أثناء موسم الحج"، "رؤيا القطب للشيخ تبغورين الملشوطي والشيخ عامر الشماخي حين شرحه لكتابيهما"، و"رؤية القطب أطفيَّش للرسول صلى الله عليه وسلم في المنام"، و"رؤية بعض الناس للقطب أطفيَّش في المنام على هيئة حسنة وسؤاله له"، ينظر بتفصيل: الشمائل الطفيشيَّة، صفحات: 31 – 34.

[2]- كثيراً ما يُطلق المؤلف هذه التسمية على القطب أطفيَّش، ولا ريب في ذلك فهو بالفعل أستاذه الأكبر.

[3]- الشمائل الطفيشيَّة، ص29.

وعن هذه الترجمة أخذ الباحثون والمترجمون للقطب أطفيَّش، وبها تعرفوا على أستاذه الأول، وعلى عائلته...، كما ترجم بإسهاب لثلاثة مشايخ هم: الشيخ عمر بن سليمان والحاج قاسم بن الشيخ أبي الحاج والشيخ بلحاج بن كاسي القراري _دفيني العطفاء[1]_.

تعدّ التنبيهات التي يقف عندها المؤلف بين الحين والآخر في رسالته استطرادات؛ غير أنها لا تخلو من الفوائد المتممة للمعنى من دونها لا يتم المراد، فخذ على ذلك أمثلة منها: ذكر فوائد كثيرة عن علاقة القطب أطفيَّش بعلماء المشرق العربي، وأخرى عن زيارته للعطفاء والوقوف للدعاء في بعض مقامات علمائها كالشيخ إبراهيم بن مناد الزناتي، وروضة الشيخ أبي عبد الله بن بِكر الفرسطائي، وأخرى عن نزول الشيخين بلحاج بن كاسي وابنه قاسم بن الشيخ بلحاج القراريين بالعطفاء، وأخرى عن سبب لزوم الشيخ عبد العزيز الثميني لداره... إلخ، وكذا ذكر بعض ما يقع في مناسبة "عيد الزيارة"[2] بالعطفاء ولا نعلم له مصادر كثيرة غير الرواية والمشافهة، وغير ذلك من الفوائد كثير.

[1]– هي: العطف أو تجنينت، أم قرى وادي مزاب، تأسست القرية الحالية سنة 1012م، وتوجد قبلها قرى مندثرة كـ"أغرم ن تَلَزْضِيتْ" و"أُوخِيرَة"...

[2] عيد سنوي بميزاب يقع في فصل الربيع، يخرج فيه العزَّابة والتلاميذ والعامة في جولة حول القرى يتلون القرآن ويتضرعون إلى الله أن يحمي الغلال ويثمّر النخيل، لأنه فصل تأبير النخيل وهي زاد وقوت أهل البلد، وفيها أيضا تزار مقامات وأضرحة الأولياء والصلحاء للدعاء والاعتبار؛ أنظر بتفصيل: الشيخ القرادي، رسالة في بعض أعراف وعادات وادي

خاتمة:

لقد سطع نجم القُطب مبكِّرًا في سماء مزاب والجزائر والعالم الإسلامي، وساهم بذكائه وحسّه الإسلامي المرهف في تحسيس المسلمين بأهمية العلم وضرورته، وكذا التنبيه بخطورة الاستعمار وسياسته في تجهيل الشعوب وجعلها تابعة له، فعرف المنصفون مكانته العلمية فقدَّروها حقَّ قدرها، وتسارعوا إلى لقائه وإرسال وفود الطلبة إليه، حاملين معهم الهدايا والكتب القيّمة من سادتهم ووجهائهم.

وقد كانت للقطب مع سعة مداركه مراسلات إلى أبعد الآفاق الإسلامية، فله رسائل مع سلطان زنجبار "برغش" الذي كان يدفع له منحة شهرية ويشارك في حركة النهضة بطبع المؤلفات الإباضية، كما كانت له مراسلات كثيرة مع أعلام الفكر الإسلامي لاسيما أهل عُمان إذ تلقى سنة 1298هـ/1881م نسخة من "بيان الشَّرع" لمحمد بن إبراهيم الكِندي العُماني، وهذه الموسوعة تحتوي على 71 مجلداً، وأخرى من "قاموس الشريعة" لجميل بن خميس السعدي التي تحتوي على 92 مجلداً.

ومن هنا فإن جلَّ العلماء الذين عرفوه قد شهدوا له بالتفقه والاجتهاد، وهذا الأخير قد ظهر جليًّا في شرحه لمتن كتاب النيل للعلامة عبد العزيز الثميني،

مزاب، تح: يحيى بن بهون، نشر جمعية النهضة، العطف – غرداية، ط1، 2009، ص143 وما بعدها.

وعلى أية حال فإن كتاب "شرح النيل وشفاء العليل" يعد موسوعة فقهية على المذاهب الإسلامية، فالقطب _رحمه الله_ قد عالج فيه كل القضايا الفقهية بنظرة إسلامية تقوم على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وآراء المذاهب الإسلامية جلها.

أما الرسالة المسماة: "السَّلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة"، وهي من تأليف الشيخ إبراهيم بن بكير حفَّار، فتعدّ مصدراً ثرياً من جوانب عدّة؛ فواضعها من تلاميذ القُطب، وهي تعرّف بجوانب متعددة عن القطب أطفيَّش _رحمه الله_ الفكرية والعلمية والدينية، مما نقله الشيخ حفّار مباشرة عن شيخه القطب، أو من مشاهدة الثقات من أترابه في الدراسة لأنه كان ضريراً كما نعلم، فهي رسالة نفيسة في هذا الجانب، يضاف إليها ما سجله المؤلف من ملاحظات وتقييدات مهمة لأعلام وأماكن كثيرة ندر ما تكون الإشارة إليها؛ على ما في أسلوب صاحب الرسالة من تطويل في العبارات وتنميق في الألفاظ والزخرفات، وكذا الاستطرادات الكثيرة والعديدة، وإن كانت تحمل في طياتها إشارات طريفة ومفيدة، فهي في نظري لا تحطّ من قيمة الكتاب ولكنها تدّل على أسلوب المؤلف وعصره خصوصاً.

ويمكن اعتبار كتاب "السَّلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة" مذكرات تلميذ مباشر من تلاميذ القطب النجباء، وبالتالي فهي من المصادر التي لا غنى عنها في التعريف بسيرة أستاذه القطب _رحمه الله_؛ فما تحمله هذه المذكرة من الأخبار والآثار مما شهده الطالب بالعيان وطول العشرة التي تقتضي التعرف على الكثير من الطبائع والخصال، وبه تقع المكاشفات التي قد لا يذكر الشيخ تفاصيلها

ودقائقها في مذكراته حتى وإن وُجدت؛ ومن هنا فنحن أمام نموذج لمذكرات صاغها أحد تلاميذ الشيخ أطفيَّش المبرَّزين، وهو الشيخ إبراهيم بن بكير حفّار القراري؛ وفيها ذكر تفاصيل قيّمة عن سيرة القطب أطفيَّش؛ آملين أن تحقق تحقيقاً علمياً رصيناً يليق بمستوى المؤلف والمترجم له على السواء؛ فهي تحتاج إلى وقفة متأنية وقراءة دقيقة حتى نستوعب أفكارها ودقائقها.

ولا بأس في ختام مقالنا أن نذيله بجملة من التوصيات التي نراها جديرة بأن تذكر، وهي:

1- إعادة تحقيق كتاب "السَّلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة" تحقيقاً علمياً دقيقاً معاصراً، بوضع الهوامش والتخريجات الضرورية والفهارس العلمية خدمة للبحث العلمي.

2- البحث المستفيض والمتأني عن مؤلفات أخرى مخطوطة للشيخ إبراهيم بن بكير حفار القراري قد توجد في مكتبات ميزاب، ورصد أماكن وجودها حتى يتوصل إليها الباحثون بالدراسة والتحقيق.

3- اعتبار كتاب "السلاسل الذهبية" جزءاً من سيرة القطب أطفيَّش العلمية والفكرية، وضرورة البحث عن ترجمات أخرى لتلاميذه المحتكين بهم كالشيخ عمر بن حمو بكلي، والشيخ إبراهيم مطياز، والشيخ أبي اليقظان... وغيرهم.

4- إعادة تحقيق ونشر الطبعات القديمة للتراث الأدبي واللغوي للقطب أطفيَّش، وترويجها داخل القطر الوطني وخارجه.

5- النشر الإلكتروني لأمهات تراث القطب أطفيَّش عبر مواقع متخصصة، كموقع "مؤسسة القطب أطفيَّش"، والدعاية لها بما يكفي عبر الجامعات ومراكز البحث العلمي في الوطن العربي والعالم الإسلامي.

أما فيما يخص حفظ التراث المخطوط للقطب أطفيَّش بصفة عامة؛ فإننا نوصي بما يأتي:

1- الدعوة إلى طبع فهرس مكتبة القطب أطفيَّش، ونشره على أوسع نطاق.

2- الإسراع بإنهاء عملية تصوير ورقمنة وتهيئة مؤلفات القطب المخطوطة.

3- إنشاء موقع إلكتروني يعرّف بآثار القطب أطفيَّش، ويقدم خدمة البحث الإلكتروني في تراث مكتبته.

4- إعادة طبع مؤلفات القطب أطفيَّش المحققة تحقيقاً علميّاً وأكاديمياً.

5- طبع ونشر الدراسات الأكاديمية للباحثين الشباب التي تُعنى بآثار القطب أطفيَّش الفكرية والأدبية.

المصادر والمراجع:

[1]- إبراهيم أبو اليقظان، ملحق السير، مخطوط، نسخة مصورة بدار إروان، العطف، غرداية.

[2]- إبراهيم بن بكير حفَّار، السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشيَّة، إخراج محمد بن الحاج محمد أطفيَّش، ط2، .2013

[3]- معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، مجموعة من الباحثين، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، ط1، 1999.

[4]- معجم أعلام الإباضية، قسم المشرق، محمد صالح ناصر وسلطان الشيباني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2006.

[5]- امحمد بن يوسف أطفيَّش، كشف الكُرب، طبع وزارة التراث، سلطنة عُمان، ط1، 2000.

[6]- إبراهيم بابزيز، كلمة بمناسبة مهرجان القطب، حول رحلة القطب إلى وارجلان، أعمال مهرجان الشيخ أطفيَّش، بني يزجن 1980، مرقون، مكتبة الحاج سعيد محمد، جمعية الشيخ أبي إسحاق لخدمة التراث غرداية، الجزائر.

[7]- حمو عيسى النوري، نبذة من تاريخ المزابيين، مطبعة البعث، قسنطينة، ط2، 1992.

[8]- تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نايل، تخريج عامر بن المبروك المحفوظي، ط1، 2002.

[9]- محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، المطبعة التعاونية، 1965م.

[10]– الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، ط1، 1970.

[11]– القرادي، رسالة في بعض أعراف وعادات وادي مزاب، تح: يحيى بن بهون، نشر جمعية النهضة، العطف – غرداية، ط1، 2009.